داء الشرق الأسلامى ودواؤه

للسيد عبد العزيز الثعالبى

الاستاذ السيد عبد العزيز الثعالبي هو زعيم تونس المجاهد فى سبيل حريتها واستقلالهـا ، والأديب الرحالة الباحث المفكر فى أسباب علل الشرق وتأخره ، المتلمس اسباب إنهاضه وصلاحه

والأستاذ الثعالبي محكوم عليه بالنفى من بلده تونس وقد أقام زمنا فى فرنسا وهى البلد التى يناصبها الخصومة السياسية ثم أقام بمصر مدة حيث اتصل فيها بكثير من المشارقة والمغاربة ، وتبادل فيها الرأى مع رجال العلم والاصلاح من المسلمين . ثم سافر منها الى العراق حيث لاقى من سادتها وكبرائها ما هو جدير به من حفاوة وتقدير : كما كان ذا حظوة لدى جلالة الملك فيصل الاول رافع لواء النهضة العربية ومجدد مجد العراق

ولمـا كانت مصر هى عقل الممالك الاسلامية المفكر وقلبها النابض بحب الرقى والطموح الى المجد . فقد عاد اليها الثعالبي للاتصال بعلمائها وذوى الرأى فيها ، ولم يزل مقيما بها الى الآن حيث هو موضع الحفاوة والتكريم من الجميع

وقد تشرفت بمقابلته طالبا الى سيادته التفضل على «المعرفة» بالتحدث الينا عما يراه فى أسباب تأخر الشرق و بعبارة أخرى تشخيص الداء الذى يفتك بالمسلمين فى الشرق وكيفية علاج تلك الحالة السوأى فتفضل باجابتنا الى ملتمسنا وأخـذ يفيض علينا من واسع معرفته وسديد رأيه مما جعلنا نردد قول القائل بحق « إن فى السويداء رجالا » . وقد تفضل فوعدنا بتتمة البحث فى مرة أخرى وها نحن ننشر الجزء الذى انتهى الحديث اليه ؟ المحرر

إن أسباب ضعف الشرق وجموده السياسى ، بل وفتوره الاجتماعى والأدبى كثيرة ومتنوعة ، على أن أكثرها لم يكن حديثاً بل كان متسلسلا متتاليا من أدوار بعيدة مختلفة مرفيها الاسلام والمسلمون ، ويمكن للباحث أن يرجعها الى نقط جوهرية أهمها النقط الآتية :—

« الأولى » ، وهى أن المشترعين أو الفقهاء المسلمين بتعبير أصح لم يوجهوا عنايتهم الى تنظيم المؤسسات الأسلامية ، بل انصرفوا الي مراعاة الحالة الفردية المتعلقة بالمتولين وتركوا اعتنايتهم بالولاية نفسها ، وأهملوا الدعامات التي تقوم عليها تلك المؤسسات ، كالتشريع والخلافة والقضاء وما شا كل ذلك . فبدلا من أن يفكروا مثلا فى وضع نظام ثابت للاجتهاد والخلافة والتشريع ، ويجعلوا لهـا شروطا وقيوداً ، ويعتبروها كحاجة من حاجات الامة ، تتطور وتتغير بحسب تطورها وتغيرها — أهملوا ذلك كله ، وانصرفوا للبحث عن شخص الخليفة والفقيه والقاضي وحدهم ، ولم يقل لنا الفقهاء كيف ينتخب الخليفة ، ولا أى الهيئات التي تنتخبه ، ولا العمل الذى يقوم به ولا كيف يجتهد الفقيه

ولا كيف يكون الأجماع ، فمثلا يشترطون في شخص الخليفة كذا وكذا بينا لا يراعون ما يشترط فى انتخاب الجمهور له وما يجب له وعليه بالنسبة للمجتمع وما يجب على المجتمع بالنسبة له ، حتى يعرف ما يجب أن يكون بينهما من الواجبات والحقوق ويكون ذلك قانونا عاما لكافة من يقوم بالخلافه

وقد جر إهمال ذلك إلى تكالب المتغلبين على التحكم فى الممالك الاسلاميه ، ووجد من الفقهاء المزيفين من جوز إمامة المغتصب الذى يتولى ولاية الامة بغير رغبتها و إرادتها ومن هنا فتح باب الشر على المسلمين ووجدت بينهم الحكومات الدخيلة غير المشروعة التي تسلطت على أقطار كثيره من بلاد الشرق ، وقد كان تسلطها الفضولي سببا لاختلال وحدة النظام العام وانهيار الدول وتأخر المسلمين ، وجر ذلك كله إلى اختلافهم فى اللهجات والشعور والمصالح والمعاملات ومعظم المظاهر الاجتماعية ، وهذا فى نظرنا من أفظع دواعى الهلاك

جاء الاسلام وأوجد للمسلمين وحدة عامة ليس فى تفكيرهم وشعورهم فحسب بل وفى شرائعهم وسياستهم ومصالحهم ، كما ظهر ذلك في عهد الخلفاء الراشدين والدوله الأموية والصدر الأول من الدوله العباسية فى الممالك التى دانت لهم بالطاعة ، ولما ظهر الانشقاق بأجلى مظاهره فى أواسط الدولة العباسية وتعددت الأمارات فى البلاد الأسلامية ونصر فقهاء كل بلد أميره — تداعى كيان نظام الأسلام العام فبقيت الروابط العامة على حالها فى نظر الفقهاء موسوعات الفقه الأسلامى ولكنها فقدت قوة التماسك والصلابة من الناحية العملية فصار كل قطر منفصلا عن الاقطار الاخرى لا يعني بها ولا يفكر فى شؤونها ، وقد تشاكست فيما بينها فاخذت الأمراض الاجتماعية تفتك بهم وتأكلهم حتى دب دبيب الانحلال فيهم ، ولما استيقظت أوروبا ، كانت تؤلبها على الأسلام قوة المؤسسات المسيحية التي لم يكن لها من شبيه في الامم الأسلامية مثل المؤسستين الموجودتين للكنيسة الكاثوليكية فى روما والكنيسة الارثوذوكسية فى القسطنطينية

***

« الثانية » عدم التفريق بنظام قاض بين السلطتين الدينية والدنيوية ، فكان هذا من جملة المسببات لتأخر المسلمين إذ أن جمع السلطتين فى شخص واحد بدون تحديد لهما كان من أبعد الأمور إلى اختلال النظام ، و إذا كان هذا أفاد المسلمين فى صدر التاريخ الأسلامى وأمن العالم لهم كما قدمنا ، إلا أنه كان بلاءاً بعد انقسام المسلمين الي عدة ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب ووجود دول أخري تنازعهم السيادة على

العالم ، وقد عاد اجتماع هاتين السلطتين بلاءاً عليهم اذ أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية في الواقع في قبضة تلك الدول الغربية التي نازعتهم كما هو مشاهد الآن ، فكل مملكة احتضنت مذهبا في العقائد والفروع لتبقى وحدها منفصلة عن الممالك الاخرى . فبعد الانقسام أصبح كل أمير منهم إماما دينيا وحاكما سياسيا لقطره فكانت النتيجة من هذا الجمع الاخلال بالنظام العام وزالت الوحدة المقصودة من روح التشريع الاسلامى فتعددت الخلافة واختلت أحكامها بعكس الامم الأخرى التى تنبهت الى حكمة الفصل بين السلطتين فصار ذلك الفصل مصدرا لفائدة الأمة وحمايتها من التلاشى والانهيار فلم يضرها اختلاف الدول فيها لوجود الرياسة الدينية قائمة فى حدود سلطتها وتخصصها ولذلك بقيت وحدتها خالدة فى عصمة من الانشقاق والتدهور اللذين أصابا الوحدة الاسلامية ، ولنضرب لذلك مثلا وحدة الكنيسة الكاثوليكية فانها على الرغم من اختلاف الدول الكاثوليكية بقيت لها زعامتها وشعورها بقوة فكرتها ، وقد رأينا أثرها فى الحروب الصليبية المستمرة بل وفى كل الحوادث التى تلتها والتى تألبت فيها أوروبا على الامم الاسلامية فأن للكنيسة والجمعيات الدينية المختلفة التي تستمد سلطتها منها أثرها الفعال فى بقاء وانتشار المسيحية وتاثيرها في سياسة العالم .

ولشد ما حاولت بعض الدول الاوربية أن تنقص من سلطة البابا فى ممالكها للتخفيف من قوة الكنيسة فآبت من محاولتها بالفشل وذلك بما لها من قوة المؤسسات وقد حاولت فرنسا فى أوائل القرن العشرين (سنة ١٩٠٤) أن تفصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية فاصدرت لذلك قانونا قام بتنفيذه وزيرها الخطير المسيو كومب ، لكنها لم تلبث بعد عشرين سنة أن عادت إلى الاعتراف بسلطة البابا وأعطته أهم ما سلبته من الحقوق وأعادت كل ما كان بينها وبين الفاتيكان من الصلات القديمة .

ولو رزق المسلمون رجالا ينظرون بعين الناقد البصير – من قبل قرنين وفصلوا الدين عن السياسة – لكان للاسلام اليوم من الشأن والسيادة فى الممالك التى اغتصبتها الدول الاوربية ما لا يقل عما للفاتيكان وما كان خطر الاستيلاء الاجنبي عليهم عظيما فأن أعظم ما أصاب المسلمين من المصائب انما هو فقد الرياسة الدينية بعد أن فقد منهم الاستقلال ، وحرمانهم من بقائها درعا حاميا وسدا منيعا من تسرب المستعمرين باسم السياسة الى السيطرة على شعور وضمائر الامم الاسلامية حتى كاد يختل بناء الدين ويتنكر المسلمون تعاليمه الحقة . وكذلك ترك الاجتهاد والاستنباط واستخراج الأحكام لجهود فردية لا تعلق لها بمصلحة الدولة ودون أن تكون منوطة بمجامع

خاصة ـ جعل الفقهاء ينصرفون إلي الفروع دون الاصول . وبذلك تركوا الجوهر والاساس الذى يجمع كل ذلك فى قبضة واحدة : قبضة المؤسسات العامــة التى لم يعن بها وهى التى تضمن بقاء وحدة الامة الاسلامية غير معرضة للاخطار بعيدة عن كل سيطرة أجنبية . والمقصود بالقبضة الواحدة هوالقانون الاساسى الذى يكون مرجعا للتصرفات والقوانين وتحديد السلطات وهو الجانب المهم الذى أهمله الفقهاء

أضف إلي هذا ماانتشر بين بعض رجال الدين أصحاب النفوذ من الجمود والبقاء على ماألفوه دون تفهم لروح العصر الذى يعيشون فيه . ولا إدراك للمثل العليا التى يرمى إليها الاسلام فى سياسة الحكم والسيادة . ورميهم كل مصلح يريد تغيير المنكر بأشنع التهم التي لا يرضاها الاسلام . وأشد من هـذا غرابة ماتراه من تهريج أولئك الجامدين لبعض الاجانب الذين يعتنقون الاسلام وهم ليسوا فى شىء منه بينا لا يبقون للمسلم الاصيل الذى قد يريد خيرا للمسلمين إسلامه كأنمـا أصبح الدين بيتا من بيوتهم يخرجون منه من يشاءون ويدخلون فيــه من يرضون بلاقيد ولاشرط

***

ليس الدين قوة مسلحة ترهق النـاس وتستدعى الخلاف ولـكنه دين عقل وعمل وتبصر وتسامح وحكمة وقد قال الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال (وقل اعملوا فسيرى الله عملـكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بمـا كنتم تعملون) وقال أيضا (ادفع بالتى هي أحسـن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) وقال أيضا (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمي وأضل سبيلا) . وقال (كنتم خـير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) إلى آخر ماورد فى ذلك المعنى من الآيات البينات التى تلهم الانسان التعقل والحكمة وتهديه إلى سواء السبيل فى الحياة وبعد الممات . ولـكن وجد ضالون مضالون فى كل عصر يتنكبون مصادر العلل ومنـاشىء الادواء ويتهجمون على الدين يطعنونه فى الصميم ويلحقون به ماأصابهم من جمود وانحطاط ظلمـا وعدوانا . ومع أن الدين الذى قلب نظام العالم وأوجد إخاء بشريا رحيبا وارف الظلال جمع تحت لوائه أربعمائة مليون من البشر بين صينى وهندي وجاوى وفارسى وتركاني وعربى وبربرى وسواهم . وأوجد أكبر مـدنية عالمية عرفها التاريخ ـ دين هـذا شأنه يستحيل أن يكون عنصر انحطاط . ولـكن مايشاهـد من هذا الانحطاط عارض يزول بزوال أسبابه .

« الثالثة » فقد الرقابة على التربية والتعليم والمؤلفات والكتب الدراسية . (١) وقد تسبب عن ذلك تسرب دعايات مختلفة دست على الاسلام فى تعاليمه القيمة فكانت كالسوس يأكل اللحم وينخر العظم ، من ذلك شيوع مقولات الجبر والقدر والسوفسطائية والباطنية وبعض مذاهب الصوفية النظارية التي كانت أكبر خطر على الاسلام . وكذلك غيرها من المذاهب والآراء المتسربة من الأديان المختلفة قديما وحديثا التى كافحها الاسلام لتخليص العقل وتطهير الوجدان من ضلالاتها القديمة . ولم يلبث أن وقع فيها بفقد تلك الرقابة التي تعنى بها الامم قبل كل شيء آخر . فلو عنى بهذه الرقابة من عهد الدولة العباسية قبل هجوم البرابرة والمغول على دول الاسلام إلى اليوم ، ما أصاب الاسلام ما أصابه وما استطاعت أية قوة مهما كانت جبارة في الأرض أن تنقض من بنيانه حجرا واحدا وما انحط المسلمون إلى الحضيض الذى انحدروا اليه ولسبقوا أوروبا إلى إيجاد الطرق الملائمة للتربية والتعليم والتمدين وما جمدت المدنية الاسلامية فى عصر من العصور فترة ما .

***

والآن لم يبق من وسيلة الا إيجاد مؤتمر جامع للمسلمين ينظر فى شؤونهم العامة وهذا ما دعوت اليه منذ ثلاثين سنة في جريدة المؤيد ومجلة الموسوعات وغيرهما من الصحف العربية فى مختلف الاقطار وسنواصل العمل لتنفيذ هذه الخطة . ونحدد ما يجب عمله لعقد ذلك المؤتمر ، وهذا ما سنتناوله بالبحث فى الجزء الآتى من مجلة المعرفة إن شاء الله تعالى

عبد العزيز الثعالبي

تحذير ورجاء

نرجو حضرات الكتاب والأدباء والعلماء وجميع الذين يتفضلون على مجلتنا بأبحاثهم أن يتأكدوا من كل شخص يتقدم إلى حضراتهم مدعيا تمثيل المجلة ، لأخذ موضوع أو حديث أو غيره منهم . فقد أبلغنا بعض حضراتهم عن أشخاص من هذا القبيل ، تقدموا إليهم بتلك الدعوة الكاذبة وليست لنا بهم علاقة مطلقاً

المحرر

---

(١) إشارة الى ماتصنعه الكنيسة الكاثوليكية من مراقبة بعض المؤلفات وحرمان أتباعها من قراءتها مثل مؤلفات روسو وفولتير وزولا وغيرهم